

## التربية الحديثة

للدكتور عبد السلام الكرداني بك

مرافق تعلم نوات

تطورت أساليب التربية مع الزمن تبعاً لتطور المثل العليا التي تسود كل عصر من العصور، فأتى على الإنسان حين من الدهر كان يرى فيه أن القوة الجثمانية هي حيرغاية يجب أن يتجه إليها التربية . وعلى هذه الأسس أقيم صرح التربية في ذلك العصر واتجهت العناية إلى تقوية الجسم وتمرينه على مختلف أنواع الرياضة وضروب الفروسية .

ثم جاء عصر آخر اتجه فيه الفلاسفة نحو العناية بالقدرة الكلامية في الحوار والمناقشة وقرع الحجج بالمنطق وغير ذلك من أساليب المنطق ، فسيطرت هذه لفكرة على الثاقمين بتربية النفس ، فعملوا كل همهم إعداد الفرد لإتقان الكلام ووزن الحجج حتى يتفوق على مناقشه ويفوز بكسب قضيته .

ثم أتى على الإنسان حين آخر أكبر فيه العلم والمعرفة واستولى عليه الاعتقاد بأن أسمي الغايات هي أن يحصل المرء من العلم أكبر قسط ويحصل من المعرفة على أكبر مقدار . وعندئذ أخذت السلطات التعليمية تتنافس في تزويد الناشئين بالمعلومات عليهم يحيطوا بعلم الأقدمين والحديثين ، وقد أدى ذلك إلى الحرص على جمع العلوم والمعارف وترتيبها وتقسيمها وتوزيعها على أوقات الدراسة بالمدارس . وصار المختصون في كل مادة يزعمون لها أعظم المزايا وأعمق الآثار في تربية النفس ويطالبون السلطات بأن تزيد في الساعات التي يجب أن يخصصها المتعلم لمادتهم . ونشأ من ذلك تزايد ساعات العمل الدراسي وتضاعف المناهج وتفنن المدرسون في الأساليب التي بها يشوقون تلاميذهم لمادتهم ويسترعون انتباههم لدروسهم . والتلاميذ المسكين يزداد الحمل عليه يوماً بعد يوم .

ثم وضعت السلطات التعليمية نظماً عتيقة بفيضة أطلقوا عليها اسم الامتحانات . وأحاطوها بجور هييب مصطنع لا يقيس في التاميد سوى ذلك التقدير الذي استظهره من تلك المواد التي تعلمها . وكما اشتدت تلك الامتحانات اشتد تبعاً لذلك اصطباغ التعليم بالصيغة الميكانيكية التي جوهرها تنافس المعلمين في شحن أذهان تلاميذهم بالمعلومات التي لا يمكن لهم هضمها والإلمام بأسسها وإحاطة بحقيقة مدلولاتها .

انتشر التعليم الذى من هذا النوع وكثر عدد خريجه من المدارس والجامعات وامتلأ بهم السوق وإذا بأولى الأمر يلحقون فى كثير من هؤلاء الخريجين عجزا عن المقاصرة فى الحياة وتقصيرا عن النجاح فيما هم بسبيله من أعمال . وعندئذ أخذ كثير من المربين وأولى الرأى فى الهيئة الاجتماعية يتساءلون: هل هذا النوع من التعليم الذى تقدمه لأبنائنا وبناتنا هو خير الأنواع؟ وهل هو عدة مناسبة لهم فى الحياة؟ وفيما كان رجال التربية يراجعون أنفسهم فى أغراضها وأساليبها كان علم النفس يتقدم بخطوات واسعة وتتطور بحوثه وتصطبغ بالصبغة العملية التجريبية بعد أن كانت تغلب عليها النزعة النظرية فدرست الطفولة فى مختلف مراحلها وأتمى علماء النفس فى القرن العشرين إلى مبادئ عامة وضعت تحت نظر المربين والباحثين فى أغراض التربية وخير الوسائل لتحقيقها ، ومن أهم هذه المبادئ ما يأتى :

أولا - أن لكل مرحلة من مراحل نمو الإنسان جسيما وعقليا خصائص ومميزات . فالدور الأول من الطفولة مثلا أهم مميزاته اللعب وما يتجلى فيه من نشاط وما يسدو فيه من خيال واسع .

ثانيا - أن لكل فرد مميزات واتجاهات خاصة تتكون منها فيما بعد شخصيته وأن نشاط الطفل الخرى يكشف عن استعداداته الخاصة ومواهبه الكامنة .

ثالثا - أنه يجب للاعتبارين السابقين أن تكون دراسة الطفل والاهتمام بألعا به وميوله والحياة الخاصة التى يحياها مع رفاقه هى الأساس الذى تبنى عليه أساليب التربية . فالطفل إذن يجب أن يكون هو المركز الذى يدور حوله تفكير المربين .

وظهر من علماء التربية وقادة الرأى فيها فريق يدعو إلى تطور أساليب التربية تبعاً للاعتبارات السابقة . وبجهود هؤلاء المربين كأفراد وجهودهم مجتمعين فى حلقات صغيرة ومؤتمرات كبيرة تطورت أساليب التربية والتعليم فى ربع القرن الأخير تطورا عظيما . وظهرت طرق جديدة طبقت فى مدارس خاصة وأهم مميزات هذا النوع الجديد من التربية الحديثة هو :

أولا - كان الطفل فى نظر المربين فيما مضى ليس إلا كائنا بسيطا وديما مستقبلا . وكانوا يشبهون عقله بلوح تنطبع عليه نتائج التعليم انطبعا دائما ويصورونه كقطعة من الطين يشكلها المعلم كيفما شاء ، فالتمليذ ليس عليه إلا أن يجلس منصتا لمعلمه الذى يصب فى ذهنه أكبر قدر من المعلومات ويشكل خلقه فى أجمل قالب يراه . وهذه الحقائق فيها كثير من الصحة ولكنها تهمل العنصر الأساسى الذى اهتمت إليه علم النفس الحديث وهو أن الطفل كائن حى وأن كل كائن حى ينمو بنشاطه الذاتى ويتفاعل مع الوسط وبيئة التى يعيش فيها والحياة الزاخرة بالنشاط الذى يحياها .

ثانيا - لكي يستغل نشاط التلميذ الذاتي أو فاعليته يجب أن يجد الطفل من نفسه باعنا داخليا يستثير فيه هذا النشاط ويدفعه نحو التحصيل . وخير وسيلة لذلك هي إثارة المشاكل أمامه أو عرض المشاهد والموضوعات بصورة يجد فيها التلميذ مسائل تتطلب الحل وصعوبات يستشعر رغبة في التغلب عليها، وتخفزه على تشغيل عقله باحثا منقبا يتمس الوسائل لتحقيق غرضه هذا ، وهو الوصول إلى حل لما يقوم أمامه من مشاكل .

"فالمشكلة" من أهم مميزات التربية الحديثة ، إذ أنها الحافز على النشاط العقلي استجابة لميول حية في نفس الطفل . ذلك النشاط الذي يمدد بالمعلومات التي يجد لذة كبرى في الحصول عليها ولتي تنطبع في نفسه انطبعا دائما لا يمحى والتي تتفاعل مع معلوماته السابقة وذلك على عكس الحقائق التي يتقاهم التلميذ من مدرسه وهو شرح له المدرس بالطريقة التقليدية والتي مهما أحسن أنعلم عرضها واجتداب التلميذ لحسن الاستماع إليها وإقباله على حفظها فإنها تملأ ذاكرته دون أن يكون لها أثر ثابت أو تفاعل محسوس مع ماسبقها من معلومات . ولكل واحد من كبار المربين طريقتهم الخاصة في تحقيق ذلك الغرض . فذكرولى له طريقتة وموتسورى لها طريقتها وهينين بارك هيرست لها طريقتهم المعروفة بطريقة دولتن وكليارتك له طريقتهم المعروفة بطريقة المشروعات الخ . وليس هذا مجال تفصيل هذه الطرق المختلفة وشرح مميزاتا بدقة .

ثالثا - أن المدرسة الحديثة قد اتخذت صورة مجتمع حي يعيش فيه الأطفال على النسق الذي سيعيشونه في المستقبل كأفراد في مجتمع إنساني يتعاونون على تحقيق أغراض وضعوها نصب أعينهم ، فهم يجتمعون فيما بينهم وينتخبون ممثلهم لإدارة شئونهم ومحاسبة المقصرين أو المذنبين منهم ويرسمون الخطط لتنفيذ ما يترأى لهم القيام به من أعمال كدراسة لإقليم أو تمثيل رواية أو مكالمة وباء إلى غير ذلك فيقسمون أعمالهم فيما بينهم لكل نصيب محسوس يؤديه بحماسة وأمانة مدركا أن لحسن قيامه به أثرا فعالا في نجاح المشروع بأسره .

وهذه كلها الأسس التي تقوم عليها الحياة الديمقراطية الصحيحة ويقوم عليها التعاون الفعال بين المواطنين على اختلاف استعداداتهم وطبقاتهم ووظائفهم في الحياة تبتدر بذورها كلها في الطفل وهو في المدرسة فتحن هناك نعده للحياة بواسطة الحياة نفسها .

رابعا - كان من أثر الاهتمام بالنشاط لذاتي للطفل أن تغيرت معالم المدرسة تغيرا أساسيا . فبعد أن كانت مجرد فصول تشغل كل منها فرقة من الفرق ويتناوب عليها المعلمون بالتوالي أصبح يخصص في كثير من المدارس غرفة لكل مادة يطلق عليها اسم المعمل وتحتوى على الأجهزة والكتب والمراجع والأدوات اللازمة لدراسة هذه المادة دراسة عملية يقوم بها التلميذ بشخصه تحت إشراف المعلم إشرافا بسيطا وتوجيهه توجيها غير محسوس . والتلميذ

يعتمد على نفسه في رسم خطته وتنظيم أوقات دراسته واستخراج المعلومات من الكتب ورسم الخرائط وجمع الاحصاءات وإجراء التجارب الخ. وفي كل مدرسة ورش للأشغال اليدوية يصرف الطالب فيها وقتا طويلا لتدريب يده وتعويدها الدقة والمهارة وتمريضها على صنع الأدوات والأجهزة والنماذج وكل ما يحتاج إليه مشروعاته . وأعطيت للتلميذ حرية واسعة في التصرف في كثير من ساعات الدراسة يشغلها بالدرس أو العمل اليدوي بالكيفية التي يراها. وتطورت دراسة العلوم تطورا محسوسا بحيث أصبحت تؤدي إلى غرس الروح العلمية الحقيقية في التلاميذ تلك الروح التي تحملهم على تفهم الظواهر وإدراك مسبباتها والمناقشة في كل رأي فلا يسلمون بصحة إلا عن عقيدة واطمئنان بهد إجراء التجارب اللازمة للتأكد من اتفاق ذلك الرأي والقوانين الطبيعية المعروفة وانسجامه معها .

وأما بقية المواد فقد عني في دراستها بالكيف لا بالكم . فمقدار المعلومات التي يحصلها التلميذ لا أهمية له . وإنما المهم هو العناية بترقية أسلوبه في التفكير وبتعويده طرائق البحث . فيكفي في التاريخ مثلا أن يدرس التلميذ بنفسه أي عصر من العصور ( بمناسبة حافزة كتمثيل رواية ) يدرسه دراسة مستنيرة عميقة بهتية واهتمام وتحمس تحت إرشاد المعلم فإذا احتاج في المستقبل إلى دراسة عصر آخر استطاع أن يدرسه بنفسه معتمدا على خبرته السابقة .

والتربية البدنية وما تحتاج إليه من أفنية وملاعب وتنظييات تنال أكبر قسط من العناية لأنها مجال فسيح لترويض النفس وتهذيب الخلق وتمارين الطالب على حسن المعاملة والتعاون بمعناه الكامل الصحيح . هذا إلى فوائدنا المعروفة كسلامة الجسم وصفاء الذهن وهدوء الطبع . وهنا في المدارس الحديثة يقوم التلاميذ بأنفسهم بجميع الترتيبات الخاصة بها بغير تدخل ما .

خامسا - تبدو على تلاميذ المدرسة الحديثة إشارات تتم عن السرور والمرح والسعادة وإشارات أخرى تتم عن الرجولة وقوة الشخصية والاعتزاز بالنفس . كما أن تصرفاتهم تكشف عن بهد في الأفق وسعة في الحياة وسرعة في البديهة ومرونة تعينهم على إحسان التصرف في كل موقف ، والتخلص من كل مأزق ، هذا إلى أنهم يكونون أغزر مادة في كل العلوم . لأن ما حصلوه منها قد ثبت في عقولهم واستقر في ذهنهم للحافز الذي حملهم على تحصيله واللذة التي وجدوها في الحصول عليه .

ولعل خيرا ما نغتم به هذه الفقرة ذكر الغرض الذي وضعت نصب عينها الهيئة الدولية المعروفة برابطة التربية الحديثة التي أنشرف برياسة فرعها المصري . وهذا الغرض هو نشر الإصلاح التعليمي وترقيته بحيث يستطيع كل طفل في العالم أن يتلقى التربية الكفيلة بإظهار شخصيته على أكل وجه ، وتمييزها نموأ مترنا ، وإعداده لإدراك التبعات التي يلقيها على عاتقه المجتمع واخطلاعه بها على خير وجه .

هذا كله عن المدرسة . ولكن لبنت أيضا عامل من أهم العوامل في التربية . والتربية الحديثة لا تقيم العلاقة فيه على مجرد السلطة والاحترام وإنما على الحب والثقة والتعاون والصراحة . فالوالد يتخذ من ولده صديقا والنت تتطلع إلى أمها كهاوئة وملهمة . فبعد أن كان الولد يجلس منزويا في ركن من الأركان مكتفيا لا يتكلم إلا إذا أذن له أصبح للولد حرية تتيح له أن يجلس كيف شاء في حدود الأدب المعقول وأن يشترك في المناقشة ما دام حرصا على آدابها متبعا قوانين المجتمع وأصبح الوالد يصارع ابنه والأم تفتاح بنتها في مواضع على جانب عظيم من الأهمية كالمسائل الجنسية التي يحتاج الفتى والفتاة فيها إلى إرشاد دقيق من أكثر الناس عطفًا . هذا من جهة ومن جهة أخرى أدرك الوالد أن من أسس التربية الحديثة أن العقاب الرادع للطفل ليس بإلامه بالعصا وإنما الخيلولة بينه وبين إشباع رغباته والحد من نشاطه . فالولد يجد عقوبة رادعة في عدم تمكنه من شراء قطعة خشب لازمة لمشروعه أو منعه من استعمال آلات التجارة لتهيئة نموذج يرغب في إعداده أو حبسه عن رؤية فيلم جديد متصل بعمله الدراسي وهكذا .

بل إن الحكومة نفسها أخذت تنظر إلى العقوبات بل والمحاكمات نظرة عاطفية تأديبية جديدة في ضوء المباحث النفسية الحديثة . فالسجون تحولت إلى صورة تصلح من نفس المسجون وتؤدي إلى خروجه من السجن وقد اختفت فيه زعاعات الشر وحلت محلها زعاعات الخير .

وتجلب هذه الظاهرة بنوع خاص في معالجة الأحداث من المجرمين فإن كلا منهم يكون محل دراسة خاصة بواسطة اخصائي اجتماعي من بقواعد علم النفس تقدم نتيحتها إلى القاضي الذي سينظر في القضية . والاصلاحيات التي يرسل المذنب من الأحداث إليها هي الأخرى قد أصبحت أمكنة دراسة نفسية . وأصبح برنامج العمل فيها لا يوضع إلا بعد استشارة الاخصائيين في علم النفس الحديث .

وليس هذا التقدم بالشئ انكثير الذي نرجوه فعلم النفس إلى الآن لم يحظ بالمكانة التي تجب له ولم يشغل المجتمع بعد كما ينبغي ، وإنما لرجو في المستقبل القريب تقدما عظيما يؤدي إلى الانتفاع بعلم النفس في كل ناحية من نواحي المجتمع ، وإما لرجو أيضا أن تساهم مصر في هذه الحركة بأكثر قسط وأن يكثر فيها عدد المشتغلين بعلم النفس في البلاد ، إذ أن عددهم في الوقت الحاضر لا يتجاوز عدد أصابع اليد وأن تقام دعائم الإصلاح الثابتة على أساس بحوثهم الخاصة حتى يتبأ كما ترجو رابطة التربية الحديثة لكل طفل مصري أن يتلقى في جميع نواحي المجتمع التربية الكفيلة باظهار شخصيته على أكمل وجه والمؤدية إلى إاضطلاعها بأعبائه على أحسن صورة .

عبد السلام الكرداني